نظامنا الاجتماعي

روح الزمان

روح الزمان مظهر الحياة والحركة للامم وحركتها مملوءة بالاسرار فهي تنفذ فيها كما ينفذ الهواء الذي تتنفسهُ وقد تكون مثل جراثيم الاوباء القاتلة إذا خطت الامة الى الفناء

روح الزمان تحرك مجتمعات البشر العظيمة وتقوى في الحواضر ويضعف تأثيرها في القرى والدساكر

وهمّ رجال السياسة بعد هذا ان يبحثوا أولاً عن مقتضيات الزمان وطبيعته الاساسية وجدير بهم ان ينتهزوا نهزة طول الوقت لانفاذها — وكل عمل يكون بعد أوانه او قبله عاقبتهُ الخيبة والخسران

واحزم الناس ما إن فرصة عرضت لم يجعل السبب الموصول منقطعا

ولما كان السياسة قد ولوا عملاً خطيراً هو قيادة الامم وإدارتها كان من واجبهم ان يعرفوا جهة هبوب الرياح ومباغ اتساع الامواج في البحر الذي تسير فيهِ سفينة الدولة والاّ فقد تدخل المياه الى السفينة من ثقب فيها ثم تذهب بها وبمن عليها

فعلى رجال السياسة كالوزراء والصحفيين ورؤساء الاحزاب ان يجتهدوا في تطبيق مبادئ الزمان الجديدة على الامة في حينها فان الزمان يبدد القوى التي كانت منذ اجيال ويوقظ قوى اخرى لا تزال مجهولة تدور مع رياح السعد او النحس في الصعود او الهبوط

وتتجلّى روح الزمان في طبيعة العصور المختلفة وفي نزعات اهلها وميولها. واطوار التاريخ العظيمة هي الرسوم الواضحة في صفحة الزمان. والآراء الجديدة في آفاق العالم كالكواكب الدرية تطلع ثم تغيب إذالة بعد إذالة وما ارتفع من الآراء الجديدة اليوم قد يصير ساقطاً ومنبوذاً غداً. مثال ذلك الثورة الفكرية في أوربا في عهد الحروب الصليبية فقد طرأ عليها الوهن فانطفأ مصباحها بعد ان شاعت وانتشرت في ارجاء العالم ثم جاء عصر النهضة العلمية بعد الحروب الصليبية بقرن وتبعها الانتقاض[1]

ومن الملاحظات الجديرة بالذكر ان الشيوخ اقل استئناساً بالآراء الحديثة من

(١) اي رد الفعل

الشبان فيها الشاب يقتبس الفكرة الجديدة بسرعة اذا الشيخ لا يستطيع اقتباسها الا بجهد وعنت وحكمة ذلك ان الشيوخ قد ألفوا ما ألفوهُ من قبل وضعفت فيهم حركة المجموع العصبي حتى صارت لا تقاوم قوة الاعتياد القديم لتظهر عليهِ

ولم يكن للشرّعين ان يضطروا أُمة الى العمل بقانون جاءوا بهِ من عند انفسهم حتى ان الفاتحين العظام لم يستطيعوا حمل الناس على الخضوع لأوضاع وانظمة لا تتفق مع حاجتهم ولا تلبث بالقوة الاّ زمناً يسيراً .وان مثلهم في ذلك مثل الحيوان يُضطر الى ان يعمل عملاً يخالف غريزتهُ فهو لا يقدر ان يصبر على هذا العمل الا دقائق معدودة بالضغط ومتى ارتفع عنهُ الضغط عاد الى غريزتهِ وفطرتهِ التي فطرهُ الله عليها

وكذلك شأن الامم في أوضاعها ونظمها التي لا تنطبق على حاجاتها فإنهُ لا يمرُّ زمن يسير حتى تعود الاوضاع الى ما كانت عليهِ قديماً ولا يبقى في الحقيقة من النظام الجديد إلاّ الاسم الجديد !

والتحول في نظام الامة لا يكون الا بالتدرّج الارقى إذ الباعث الى نشوء الانظمة والاوضاع الاجتماعية هو الباعث الى نشوء كل كائن حيّ في العالم

ومن سنن النظام الاجتماعي ان يكون التغير فيهِ نتيجة مجموع التعديلات الخفية التي تحدثها اجيال الناس على تتابع العصور . بيد اننا نشعر بالتغير عندما تؤيده القوانين الوضعية فنظن انهُ نتيجة تلك القوانين غير عالمين انه نتيجة حركة متواصلة وعمل كبير فإذا روى المؤرخون ان الفراعنة كانوا امة ذات حضارة عظيمة جاز لنا الحكم بان حضارتها لم تكن الاّ ثمرة ماضٍ طويل ولو كان هذا الماضي مجهولاً لدينا . ومن الاوهام ان تحلم امة بأن ترتقي وتطير في جوّ الحضارة بسرعة ودول اوربا واميركا لم تصل الى هذا الرقيّ الاّ بعد ان اجتازت عقبات كأداء في سبلها وخطت الى العلم والصناعة والتجارة خطوات تدريجية وتاريخها العام ادل دليل على صدق ما نقول

واذا كان الانسان قد خضع لقاعدة التدرج والارتقاء فالدول كذلك وكلنا يعلم اننا انتقلنا من الحالة المسيحية الى الحالة المدنية ثم خضعنا لنظام دولة ابتدأت في حداثتها كما يبتدئ المتعلم في المجاء ثم اخذت اطواراً بالتدريج وسيستمر الترقي اذا سرنا في مراقي الصعود وصادفنا عناية من القامة وتوفيقاً من الله

وليس طراز الادارة السياسية في امة دليلاً على حياتها الحاضرة لاغير بل هو أيضاً

دليل على الاطوار الادارية التي تقلبت على الامة في ازمنتها الفائتة. ومن الغفلة ان نختار لادارة البلاد الطرق والانظمة والقوانين التي تدلنا النظريات على انها أرقى واحسن من غيرها وقد برهن التاريخ على ان المشرعين الذين وضعوا الشرائع الخالدة قد أصابوا مبلغ حاجات امتهم وما أصح قول سولون (انا لم اشرّع لاهل اثينا شريعة واقية مصدرها الخيال وإنما وضعت لهم شريعة توافق استعدادهم وتلائم حاجاتهم) لذلك كانت القوانين والنظم في الامم تراجم احوالها النفسية والمدنية وليس في التاريخ مثال واحد يدلنا على ان امة تغيرت قوانينها بالقوة القاهرة ولبثت اياماً تعمل بها وهذه جزيرة قرسقة التي تحكمها الجمهورية الفرنسية لا تزال معرّة بقطاع الطريق وأهل الدعارة على الرغم من وجود محافظ وقضاة وقانون وشرطة فيها. وما برحت طبقاتها محتفظة بعادات القرون الوسطى

وهذه ايرلاندة لم تفوّد الانكليز الحديدية على تغيير شيء فيها. ان طبائع الامم سلطة على مرافقها وان تغير هذه مرتبط بتغير ما تربت عليه عقول تلك الامم

وان الوادي الذي حُفر في كثير من العصور لا يملأ الا في كثير من العصور

ومن آيات الرقي الصحيح للامم الناهضة ان تأخذ بوسط بين طرفين من التمسك بالقديم والانتقال الى الجديد لأن الطفرة مضرة كما ان الجمود مضر والتقليد على الجملة مفيد إذا وافق البيئة واقترن بالاعتدال على يد حكماء بارعين واطباء ماهرين يعالجون امراضها المزمنة بكل مهارة واناة وصبر

والامة الانجليزية هي المثل الاعلى لمراعاة التوازن بين الاحتفاظ بالقديم والاخذ بالحديث. كذلك الامة الرومانية من قبل. والسر في عظمة الانجليز وقوتهم إنما هو نتيجة ذلك التوازن المعتدل بين القديم والحديث — وحرية بلاد الانكليز وانظمتها وقوانينها ليست من أثر كرومويل ولا من آثار انصار الجمهورية الانجليزية سنة ١٦٤٩ م بل هي بنت التاريخ الانكليزي المجيد من عهد بعيد

فلتعمل الامم الناهضة كأمتنا بهذه المبادىء الاجتماعية في نهضة التعليم والتربية والتشريع والقضاء والإدارة وغيرها شيئاً فشيئاً. فاعتبروا يا اولي الابصار. وبالله التوفيق

عبد الرحيم محمود
المدرس في مدرسة الجيزة الثانوية